خزانة مخطوطات المعهد الموريتاني للبحث العلمي
الواقع والآمال

د.محمد الأمين ولد أن
– جامعة نواكشوط، موريطانيا

المقدمة:

أثمرت المدرسة التقليدية الموريتانية (المحضرة) نتاجا علميا ضخما ما يزال أغلبه محفوظا بين ثنايا المخطوطات، وهو يعبر عن مستوى النهوض العلمي الذي بلغته البلاد في تلك المرحلة من تاريخها، وليس أدل على ذلك من آلاف المصنفات التي شملت مختف العلوم والمعارف.

ولا يخفى على أحد أن أوضاع المخطوطات في بلد حديث النشأة مثل موريتانيا تبقى متردية إلى حد يصبح معه العلاج مضنيا أو مستحيلا، فهي مبعثرة بين الخزائن والمكتبات الموزعة بين أرجاء البلاد الشاسعة. وقد تعرض جزء كبير من تلك المخطوطات لعوامل التلف بسبب سوء الحفظ وضعف طرق الصيانة، وهو ما تم التنبه إليه عند ما تزايد الوعي لدى ملاك المخطوطات بضرورة وضع أساليب جديدة لصيانة وحفظ هذا الموروث الثقافي.

لقد عرفت موريتانيا الاهتمام بالمخطوطات منذ سبعينات القرن الماضي (20م)، حيث قيم بمجهود كبير لجمع وحفظ وصيانة

المخطوطات الوطنية، والتي يقدر عددها بأكثر من 40.000 مخطوط. وضمن تلك الجهود تم إنشاء المعهد الموريتاني للبحث العلمي سنة 1974م ليكون مؤسسة وطنية مهمتها: الاعتناء بالتراث الموريتاني. وقد استفادت المؤسسة الوليدة من الدعم المادي والمعنوي الذي قدمته الدولة الموريتانية وبعض المنظمات العربية والإسلامية والأجنبية، وذلك من أجل تأدية رسالتها في حفظ التراث الموريتاني المخطوط وصيانته وتحقيقه ونشره.

لقد وضع المعهد الموريتاني للبحث العلمي برنامجا طموحا لحفظ وصيانة المخطوطات الموريتانية، فأرسل عدة بعثات إلى مناطق البلاد المترامية الأطراف لإحصاء خزائن المخطوطات وأسماء ملاكها. وقد استطاع المعهد جمع 6600 مخطوط بشتى الطرق (الشراء، الإهداء، الوديعة ...).

ويسعى هذا العمل إلى تسليط الضوء على واقع المخطوطات في خزانة المعهد الموريتاني للبحث العلمي، وجهود جمعها وحفظها وفهرستها. وهو ما سنتعرض له من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: المخطوطات الموريتانية

المحور الثاني: خزانة المعهد الموريتاني للبحث العلمي

المحور الثالث: جهود المعهد في جمع وحفظ وفهرسة المخطوطات.

1- المحور الأول: المخطوطات الموريتانية

آ- تعريف المخطوط:

أورد الباحثون والمختصون في مجال المخطوطات عدة تعريفات للمخطوط، إلا أن أغلبهم التزم بإلحاق لفظ مخطوط بكلمة كتاب، فيقال: الكتاب المخطوط، إلا أنه ليس كل ما كتب باليد يسمى مخطوطا، إذ يستثنى من ذلك الكتابة باليد على الألواح الطينية والجلود والنقش على الأحجار والصخور.

والمخطوط من خط الرجل الخط بيده أي كتبه [1]، وجاء في القاموس المحيط: (الخط الكتابة بالقلم) [2]. ومن هنا يعرف المخطوط بأنه ذلك الكتاب المكتوب بخط اليد، سواء كان في شكل لفائف أو في شكل صحف ضُم بعضها إلى بعض على شكل دفاتر أو كراريس[3]، وبهذا المعنى تخرج الرسائل والنقوش والصكوك على حدود معنى المخطوط.

ولعل أشمل وأحدث تعريف للمخطوط هو تعريفه بأنه: (كتاب لم يتم طبعه بعد، أي أنه مازال بخط المؤلف أو بخط ناسخ غيره، أو أخذت عنه صورة فوتوغرافية أو أن يكون مصورا بالمايكروفيلم عن مخطوط أصلي)[4].

ب- مصادر المخطوطات الموريتانية:

قدر عدد المخطوطات الموريتانية بما يزيد على 40.000 مخطوط موزعة بين عدة مناطق مختلفة من البلاد. وهي اليوم تشكل خزانة ثرية ومتنوعة تشمل مجالات علوم: القرآن، الحديث،

التاريخ، الفقه، السيرة، الأدب وعلوم اللغة..الخ. وأغلب هذه المخطوطات مستورد من المغرب والجزائر وتونس والأندلس ومصر وإيران وغيرها من البلاد الإسلامية. بينما لا يتجاوز عدد المخطوطات التي ألفها موريتانيون 10.000 مخطوط.

تعددت المصادر والوسائل التي جمع بها الموريتانيون القدماء هذا الكم الضخم من المخطوطات، ويمكن تقدير الحصول عليها بالوسائل التالية:

- رحلات الحج: تعتبر فريضة الحج في الإسلام من أهم الدوافع الأساسية التي دفعت آلاف الحجاج الموريتانيين للسفر إلى ديار الحجاز لتأدية هذه الفريضة، وكان أصحابها يقومون باقتناء وجلب الكتب، ولدينا الكثير من الشواهد الدالة على جهود العلماء في هذا الشأن والذين عادوا بأحمال من الكتب، ومن أبرز هؤلاء الفقيه سيدي محمد بن حبت الذي جلب الكثير من المخطوطات، واستمر اهتمامه بجمعها حتى بلغ ما لديه 1400 مخطوط[5]. وكذلك الشيخ سيدي المختار الكنتي وسيد عبد الله ولد الحاج إبراهيم العلوي الذي عاد من رحلته إلى الحج بأحمال من الكتب، والشيخ سيديا الكبير الذي جمع في رحلاته الطويلة أكثر من 6000 مخطوط، ونجله هارون ولد بابا الذي زار عدة بلدان وعاد بكثير من المخطوطات والوثائق النادرة[6].

- التأليف المحلي: لقد كان من عادة العلماء الموريتانيين التأليف في مختلف مجالات المعرفة، إذ قل ما نجد أحدا منهم إلا

ولديه تآليف في ميدان اختصاصه. وتكفي الإشارة إلى أن الفقيه محمد يحيى الولاتي ألف في حياته 114 كتابا. كما يمكن أن نستدل بالعمل الذي قام به الباحثان المختار ولد حامدن وآدم هيموفسكي حيث تضمن الجرد الذي قاموا به ل 2054 مخطوط لحوالي 394 مؤلف موريتاني.

ويقدر عدد المخطوطات المحلية التي ألفها علماء موريتانيون بأكثر من تسعة آلاف مخطوط.

- النسخ: أولى الموريتانيون اهتماما بمهنة نسخ الكتب، فقد اشتهرت أسر وقبائل كثيرة بخط الكتب.

اشتهر الموريتانيون بشغفهم بالمخطوطات، إذ لا تخلو خيمة أو دار من مخطوط، ولهذا يعتقد بعض الباحثين والمهتمين بالمخطوطات أنه يصعب تقدير عددها إذا اعتبرنا كل ما هو مخطوط من وثائق وعقود ورسائل وفتاوى فقهية، فالعدد يكون بالملايين، أما إذا اختصرنا على الكتب، فإن العدد يقدر بأكثر من 40.000 مخطوط موزعة بين 700 خزانة عمومية وخصوصية في مختلف القرى والمدن والأرياف الموريتانية[7].

المحور الثاني: خزانة المعهد الموريتاني للبحث العلمي

يعتبر المعهد الموريتاني للبحث العلمي مؤسسة ذات طابع عمومي تتبع إداريا لسلطة وزير الثقافة، وذلك بموجب المرسوم 243 الصادر بتاريخ 1974/12/31. وأسندت إليه مهمات أساسية من بينها:

- النهوض بالبحث العلمي وتنظيمه وتنسيقه في كافة مجالات العلوم الإنسانية.

- القيام بجميع الأعمال الخاصة بالبحث عن الوثائق ذات القيمة العلمية والفنية المحية مثل المخطوطات.

- تجميع كافة الدراسات والتحقيقات واتخاذ الإجراءات التي تتيح معرفة أفضل للتراث الثقافي والعلمي الوطني، وتمكن من إثرائه والمحافظة عليه وإبراز قيمته ونشره[8].

وللقيام بهذه المهمة المتمثلة في جمع وحفظ المخطوطات بدأ المعهد بالاقتناء عبر ثلاثة طرق رئيسية وهي:

- طريق الشراء
- طريق الوديعة مع إبقاء المخطوطات ملكا لأصحابها
- طريق تنازل الملاك عن مخطوطاتهم لصالح المعهد

وقد أثمرت جهود المعهد الموريتاني للبحث العلمي عن اقتناء عدد ضخم من المخطوطات ومجموعة كبيرة من الوثائق والعقود والرسائل التاريخية، وهي تشكل الآن خزانة تضم رصيدا يتجاوز أكثر من 6600 مخطوط. كما تم تصوير 3200 مخطوط على الميكروفيلم، تم اختيارها على أساس الندرة والقيمة العلمية والتاريخية.

ومن أجل تأدية رسالته قام المعهد بعدة شراكات مع بعض الجامعات والمراكز البحثية في الخارج أثمرت اتفاقيات في مجال

تكوين الأطر وإقامة مخابر للحفظ والصيانة لحماية المخطوطات وجعلها في ظروف تضمن لها البقاء والاستمرار.

كما تم القيام بجهود معتبرة في مجال شراء المعدات والأجهزة للقيام بمعالجة المخطوطات وترميمها، ثم التصوير والتخزين في أقراص مدمجة، وإتاحتها للباحثين والمختصين في المجال.

وللحفاظ على هذا الكم من المخطوطات تم بالتعاون مع الحكومة الإيطالية إنشاء مختبر للصيانة والترميم مجهز بكل الأدوات اللازمة، وهو يقوم بدور لا بأس به لمعالجة وحماية هذه الممتلكات الثقافية من التلف والضياع.

المحور الثالث: جهود المعهد في جمع وحفظ وفهرسة المخطوطات

قام المعهد الموريتاني للبحث العلمي بجهود جبارة لإنقاذ المخطوطات الوطنية، ومنذ إنشائه بدأ العمل في إحصاء أسماء ملاك المخطوطات وأماكن وجودهم والقيام بزيارات ميدانية لخزائن المخطوطات لمعرفة وضعيتها وظروف حفظها وإعداد برامج متكاملة لحفظها وصيانتها[9].

ولتسهيل مهمة الباحثين والمهتمين وتمكينهم من الاطلاع على محتوى خزانة المخطوطات بالمعهد تم القيام بجهود متواضعة في مجال الفهرسة، فتم إعداد فهرس مخطوطات [10]، نشر الجزء الأول

منه سنة 1996، وهو يضم 455 مخطوط. وقد اعتمد على الشكل التالي:

رقم التسجيل – العنوان – الموضوع – عدد الأجزاء – اسم المؤلف ولقبه – تاريخ ولادته – وفاته – الناسخ – تاريخ ومكان النسخ – مصدر الكتاب – عدد الصفحات – عدد الأسطر في الصفحة – البداية – النهاية – حالة المخطوط – تاريخ التأليف – نوع الخط – عدد الأوراق – قياس الأوراق – الملاحظات [11].

الخاتمة:

تزخر الكثير من الخزانات والمكتبات في موريتانيا برصيد معتبر من المخطوطات، أصبح محل اهتمام عدد كبير من الدارسين والباحثين الوطنيين والأجانب نظرا لقيمتها العلمية والفنية، والحفاظ عليها يعني الحفاظ على الهوية الوطنية العربية والإسلامية. ومن أجل تثمين هذا التراث المخطوط كان لا بد من قيام مؤسسات بهذا الدور فكان إنشاء المعهد الموريتاني للبحث العلمي سنة 1974.

استطاع المعهد الموريتاني للبحث العلمي تلافي ضياع جزء كبير من المخطوطات الوطنية، من خلال عمليات الاقتناء التي أثمرت جمع أكثر من 6600 مخطوط تشكل اليوم محتوى خزانته من نفائس العلوم والمعارف. كما استطاع التنبيه إلى الأخطار التي تواجه المخطوطات من سوء الحفظ وتهديد عوامل التلف المختلفة. وبالإضافة إلى هذه الجهود التي قام بها المعهد في مجال

الصيانة والترميم للمخطوطات عمل على التحسيس بأهمية المخطوط خاصة في الدوائر الرسمية والعلمية.

إن الجهود التي قام بها المعهد الموريتاني للبحث العلمي لحد الساعة والتي مكنت من إقامة خزانة تضم أكثر من ستة آلاف مخطوط، ونسخ وتصوير عدة آلاف أخرى، تبقى جهودا متواضعة في ضوء وجود إحصاءات تشير إلى أن لدى موريتانيا أكثر من أربعين ألف مخطوط موزعة على خزائن خاصة للمخطوطات بالصحراء، محفوظة في ظروف قاسية، حيث تتعرض للحرارة والغبار، من ما يعرضها للتلف والضياع.

وعلى الرغم من الدور الكبير الذي قام به المعهد في التعرف على أماكن وجود المخطوطات الوطنية، فإنه يمكن ملاحظة نواقص كثيرة، وليس أقلها:

- قلة الوسائل والإمكانيات المادية
- نقص الكادر البشري المتخصص
- غياب خطة لرقمنة المخطوطات وإتاحتها لأكبر عدد من المستفيدين
- انعدام برامج للتحقيق والنشر.

ولا شك أن مزيدا من البحث في هذا المجال سيسلط الضوء على جوانب مهمة من واقع المخطوط الموريتاني، مما يستوجب التنبيه إلى ضرورة القيام بعمل جبار من أجل إنقاذ هذا الموروث الثقافي الهام.

الهوامش:

1- أحمد بن محمد علي الفيومي، المصباح المنير، دار الحديث، القاهرة، 2003، ص106.
2- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2004، ص687.
3- عبد الستار الحلوجي، المخطوط العربي، مكتبة الصباح، الرياض، 1989، ص15.
4- فهمي سعد وطلال مجذوب، تحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1993، ص13.
5- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص154.
6- مقابلة مع د. حبيب الله ولد أحمد، باحث بالمخطوطات، بتاريخ 2013/10/04.
7- أحمد ولد محمد يحي، "تجربة المعهد الموريتاني للبحث العلمي في مجال صيانة وحفظ التراث المخطوط الموريتاني"، مجلة الوسيط، العدد الحادي عشر، السنة 2011، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، ص125.
8- محمدن ولد عبد الرحمن، الوثائق وأهميتها ودورها في خدمة البحث العلمي، المعهد الموريتاني للبحث العلمي نموذجا، رسالة ليصانص، إشراف د. محمد الأمين ولد أن، قسم التاريخ، جامعة نواكشوط، السنة الدراسية 2012-2013، ص26.
9- أحمد ولد محمد يحي، المرجع السابق، ص126.
10- تم إعداد هذا الفهرس من قبل الباحثين أحمد بن محمد يحي وسيد أحمد بن محمد سالم من قسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، والأمريكي شارل ستيوارت من جامعة إلينوي.
11- مقابلة مع الأستاذ محمد ولد أطفيل، رئيس قسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 2013/07/27.

قائمة المصادر والمراجع:

11- أحمد بن محمد علي الفيومي، المصباح المنير، دار الحديث، القاهرة، 2003.

2- أحمد ولد محمد يحيى، "تجربة المعهد الموريتاني للبحث العلمي في مجال صيانة وحفظ التراث المخطوط الموريتاني"، مجلة الوسيط، العدد الحادي عشر، السنة 2011، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط.

3- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987.

4- محمدن ولد عبد الرحمن، الوثائق وأهميتها ودورها في خدمة البحث العلمي، المعهد الموريتاني للبحث العلمي نموذجا، رسالة ليصانص، إشراف د.محمد الأمين ولد أن، قسم التاريخ، جامعة نواكشوط، السنة الدراسية 2012-2013.

5- فهمي سعد وطلال مجذوب، تحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1993.

6- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الكتاب الحديث، الجزائر، 2004.

7- عبد الستار الحلوجي، المخطوط العربي، مكتبة الصباح، الرياض، 1989.

8- زيارات ميدانية ومقابلات شخصية للعاملين بقسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي والمهتمين بالمخطوط الموريتاني.